MÎZÂNÜ'L-HAK İSLAMİ İLİMLER DERGİSİ,
sy. 1, 2016, s. 27-40.

نَمَطُ العَقْلِيّةِ الاستهلاكِيّةِ الحَديثةِ في التَّعامُلِ معَ الأَشياءِ

– دراسةٌ تحليليّةٌ في ضوءِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويّةِ الشَّريفة –

ملخص: قد تحوّلت عقليةُ الاستهلاك مع الإسراف والتبذير إلى نمط حياة في عالمنا الحديث. إن نقطة الانطلاق الأساسية للعقلية القائمة على الإنتاج والاستهلاك في العالم الحديث منشؤها احتياجاتٌ افتراضية أو وهمية وتشجيع المشترين على التسوُّق والاستهلاك بوسائل مختلفة كالموضة والدعايات. وتكون استراتيجية التسويق مرتكزة على مهارة بيع المدفأة أو السخّانة لأهل البادية وبيع الرادات لمن يسكن القطب. وفي النتيجة لم تكن الوظيفية في زماننا هي الأصل في الأشياء بل ما منحته من موقع أو مكانة واعتبار أو ما يتوصل إليه بهذه الطريقة من احترام وجلب للانتباه. وهذا له أثره في تفعيل المصروفات التي تبذل في غير موضعها. وفي نتيجة ذلك يكون قد تكوّن النموذج الإنساني الطمّاع الذي لا يشبع والحريص على جمع المال والدنيا ومن له الفضول في الرياء، والأهمّ من ذلك أنّ هذا الإنسان غير سعيد، ويتراوح ما بين الإنتاج والاستهلاك بلا روح تماماً، كالمكائن والآلات. وبطبيعة الحال أثّرت هذه العقلية سلبيًا في العالم المعنويّ والعلاقات فيما بين الناس. في هذه المقالة سيتم التطرق إلى علاقة الإنسان بالأشياء أي المادة في منظار القرآن والسنة، وسيكون التقييم من هذه الناحية للاستهلاك الذي طورته العقلية الحديثة. هناك حاجة في يومنا إلى عقلية تقوم بتوجيه مفاهيم مرتبطة بواقع خلق الإنسان (الفطرة) مثل الحلال والعفة والقناعة والانفاق والاحسان وإعادة تفعيلها في منظومتنا القيمية.
الكلمات المفتاحية: سلع، استهلاك، الاقتصاد الحديث، رأس المال.

صَفْوت
كوسا*

Eşya ile İlişkide Değişen Tüketim Zihniyeti

Özet: Modern ekonomik düzen, kendi kategorilerine göre 'geri kalmış' ya da 'üçüncü dünya' olarak belirlediği ülkelerin kaynaklarını sömürmeyi; düşük maliyet, yüksek kâr peşinde olan üretici ve düşük bedel, maksimum fayda arayışındaki tüketiciyi; sermayeye köle işçiyi, ilahlaştırılan reklam ve moda araçlarının esir aldığı tüketicileri ifade eder. Günümüzde, özellikle insanların üretilen mala olan tutkusunu tahrik eden ve 'çöldeki adama ısıtıcı, kutuplardakine klima ya da buzdolabı satabilme' stratejisi üzerine oturmuş olan pazarlama zihniyeti, bilimsel tetkiklerle tespit edilen eğilim ve zaafları merkeze alan reklam araçlarının da gücüyle, sanal olarak öne çıkarılan ve putlaştırılan rol modellerin tercihlerinin topluma pompalanmasıyla sun'î ihtiyaçlar oluşturup tüketimi bir yaşam biçimi hâline getirmeyi başarmış gözükmektedir. Reklam, moda, defile gibi tüketimi hızlandıran ve üreticinin ağına düşüren araçların maliyeti de müşteriye yüklenmektedir. Eşyada asıl olan işlevsellik iken bugün statüyü ölçen araca dönüşmesi, savurganlığı yaşam biçimi hâline getirmiş, bir tarafta açlıktan ölen diğer tarafta obezite sorunu yaşayan, zevk ve eğlenceden dört köşe insan görüntüleriyle çelişkileri normalleşmiştir. Modern kapitalist düzenin sermaye olarak kullanabileceği her şeye yönelmesi ya da insanları yöneltmesi, en mahrem alanları bile sermaye ya da tüketim konusu yapabilmesi, her şeyin çığırından çıktığını ve sözün bittiği son noktayı göstermektedir. İnsan bedeninin bile tüketime açıldığı bir dönemde yaşamaktayız. Bugün, unutulan ve insanın yaratılış gerçekliğine (fıtrat) bağlı helal, iffet, kanaat, infak, ihsan gibi kavramların yeniden devreye sokulmasına ve bunların yön vereceği bir zihniyete ihtiyaç vardır.
Anahtar Kelimeler: Sermaye, Tüketim, Tüketim Ekonomisi, Mal.

Changing Consumption Mindset in Relation to the Goods

Abstract: The modern economic system represents the exploitation of resources of the countries defined as "third World" or "developing" countries according to their own classification; manufacturer being after low cost with high profit and consumer seeking maximum benefit with low prices; labourer being slave to the capital; consumers taken as slaves by advertising and fashion tools worshiped. The modern economic system, nowadays, seems to have succeeded in bringing consumption with establishing the artificial needs as the way of life, by driving passion of people for goods produced and marketing mindset based upon a strategy of "being able to sell the heater to the people in the desert or the fridge or cooler in the Arctic", by power of advertising tools taking weaknes and inclination of consumers, identified by scientific investigation, into the centre, by supporting choices of virtually led and idolised role models in society. The cost of tools such as advertising, fashion and fashion shows are also charged to the customer. Turning of functionality into a tool of measuring status today although functionality was essential in goods, has made extravagancy way of life and these contradictions of human images suffered from obesity on one side and starving to death on the other side, and living life to the full, have become normal. Turning of modern capitalist system or its directing of people to everything that can be used as capital, its being able to make even the most intimate areas of people as consupmtion issue, show everything getting out of hand and where words fail. Hence we live in an age even when human body is open for consumption. It is needed in today's World to re-introduce the forgotten concepts of reality of creation of human (fitrat), permissible (halâl), chastity ('iffet), contentment (qanâ'at), giving in the way of Allah (infâq), excellence (ihsân) etc. and the mindset directed by all these consepts.
Keywords: Property, Capital, Consumption, Consumption Economy.

* الأستاذ الدكتور في قسم الفقه، عميد كلية العلوم الإسلامية، نائب رئيس جامعة كاتب شلبي، إزمير، تركيا.
saffetkose@hotmail.com.

إنَّ عالَـــمَ اليومِ يُعْطي لنا صورةً تتألَّفُ من سِلْسِلةِ تَناقُضاتٍ؛ منها: الأَنانيّةُ والاستهلاكُ والحرّيّةُ الـــمُطْلَقةُ، والتَّلذُّذِيّةُ (Hedonism) والإسرافُ والتَّبْذيرُ. وإنَّ اللّامُبالاةَ الأخلاقيّةَ التي انبثقَتْ من الغَريزةِ الحيَوانيّةِ وسيطرَتْ على العالَـــمِ الحديثِ هي مَبْعَثُ كُلِّ هذه التَّناقُضاتِ .في حينِ يتعرَّضُ كثيرٌ من البَشَرِ لسوءِ التَّغذية أو بالأَحْرى للمَجاعةِ، وجزءٌ آخرُ منه يُعاني من مُشكِلةِ البَدانَةِ النّاتجةِ عن الإفراطِ في الطَّعامِ.

ويُلاحَظُ أنَّ بعضَ النَّاسِ الذين لا يستطيعون تأمينَ احتياجاتِهم الضَّروريّةِ للحياةِ ما زالُوا يموتون يوميّاً بسببِ المجاعةِ، بينَما البعضُ الآخَرُ يعيشُ في بَطَـــرٍ ورَفاهيةٍ وتَرَفٍ. معَ أنّك قد تَرى أُناساً يبحثون في حاويةِ القُمامةِ عن لُقْمَةٍ يَسدُّون بها رَمَقَهم، وهناك أُناسٌ لا يَهُمُّهُمْ سوى دفعِ الملايينِ من الدُّولاراتِ لـــمُسْتَحْضَراتِ الزِّينة وعملياتِ التَّجميلِ. بينما مُواطِنو الدُّوَلِ الفقيرةِ التي تمتلكُ مواردَ طبيعيّةً غنيّةً تحتَ الأرضِ وفوقَها يعيشون في قَبْضَةِ الجوعِ والحرمانِ، فالدُّولُ المتقدِّمةُ تُحاوِلُ استعبادَ الدُّوَلِ الفقيرةِ ونَهْبَ ثرواتِها ومواردِها. وتستغلُّها لرفعِ مُستوى معيشةِ مواطنيها.

وهذه التَّناقضاتُ من أخطرِ المشكِلاتِ التي نُواجهُها في عصرِنا، وبسببِ هذه التَّناقُضاتِ فإنّ بعضاً من النَّاسِ قد نَسُوا إنسانيَّتَهم. وأصبحَ الاستهلاكُ التَّـــرَفيُّ حالةً مَرَضِيَّةً تُعاني منها المجتمعاتُ نتيجةَ هذه العقليّةِ الاستهلاكيّةِ الحديثةِ التي تُضيفُ إلى الأشياءِ مَعانيَ جديدةً.

فالمشكلةُ الرَّئيسةُ اليومَ هي أنَّ هذه العقليّةَ قد غَيَّرَتْ مفهومَ وسيلةِ الأشياءِ الذي رسَمَه القرآنُ الكريمُ وأَرْسَتْ أُصولَه السُّنَّةُ النَّبويّةُ الشَّريفةُ. وأعتقدُ أنَّ الشَّـــرْعَ يَـــخْتَطُّ لنا النَّهجَ السَّليمَ في كيفيّةِ التَّعامُلِ معَ الأشياءِ، ويأمرُنا أنْ نستفيدَ منها بطريقةٍ صحيحةٍ وسليمةٍ.

لقد نهى القرآنُ الكريمُ وكذا السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ الشَّريفةُ عن التَّبذيرِ والإسرافِ؛ والتَّبذيرُ هو إنفاقُ المالِ فيما لا ينبغي (ولو كان قليلاً)، والإسرافُ: صَرْفُه زيادةً على ما ينبغي. وبعبارةٍ أُخرى: الإسرافُ هو تجاوُزُ الحَدِّ في صرفِ المالِ، وقد قالَ تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأعراف:٣١]، وأمَّا التَّبذيرُ فإتلافُه في غيرِ مَوْضِعِه، والتَّبذيرُ أعظمُ من الإسراف خَطَراً؛ لذا قال تعالى: (إنَّ الـــمُبذِّرين كانُوا إخوانَ الشَّياطين) [الإسراء:٢٧] [1].

وإنَّ المتأمِّلَ في عالَـــمِنا المعاصرِ يرى كيف تتحوَّلُ الأشياءُ إلى غاياتٍ عبرَ انتشارِ الثَّقافةِ الاستهلاكيّةِ، تلك الثَّقافةُ قد جعلَتِ المادَّةَ لُبَّ الكونِ ومِحْورَه، واهتمَّتْ بالمظهرِ الخارجيِّ والصُّورةِ والأَناقةِ والرِّغبةِ في التَّميُّزِ والاختلافِ والتَّباهي بالمظهرِ.

١ أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، تحقيق: الشَّيخ بيت الله بيات، مؤسَّسة النَّشر الإسلاميّ بـــ«قم» الطّبعة: الأولى، ١٤١٢هـــ ص، ١١٥ـــــــــــــ١١٤. السَّيِّد الشَّريف الجُرجانيّ، التَّعريفات، دار الكُتُب العلميّة بيروت – لبنان ١٤٠٣هـــ -١٩٨٣م، ص،٤٢؛ أبو البقاء الكفوي، الكُلّيّات تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسَّسة الرِّسالة – بيروت بدون تاريخ، ص،١١٣.

ولا ريبَ في أنَّ هذه العقليَّةَ الاستهلاكيّةَ تُفضي إلى إهدارِ الموارِدِ والأموالِ، ونتيجةً لهذه الظّاهرةِ فقد تَشَكَّلَ الإنسانُ الجديدُ... الإنسانُ الآليُّ الذي لا يُراعي التّوازُنَ بينَ الإنتاجِ والاستهلاكِ. وهذا الإنسانُ الجديدُ هو طَمّاعٌ وغيرُ قَنوعٍ وحريصٌ على المالِ والدُّنيا ومُتفاخِرٌ ومُتباهٍ بالمظهرِ. والأهمُّ من ذلك كُلِّه أنَّه غيرُ سعيدٍ.

لقد صارَ النّاسُ يتلاقَون في المحالِّ التِّجاريّةِ، ويجتمعون في الأماكنِ التّرفيهيّةِ بَدَلاً من دُورِ العِبادةِ. وهكذا ظَهَرَ إنسانٌ جديدٌ؛ يستهلِكُ كلَّ ما يُنتجُهُ، بل يزيدُ استهلاكُه على إنتاجه، وكُلَّما زادَ استهلاكُه على إنتاجِه انتشرتِ المجاعاتُ، وتزايدَتْ نسبةُ «الموت بسبب الجوع».

وبطبيعةِ الحالِ فإنَّ هذه العقليّةَ الاستهلاكيّةَ أثّرَتْ سلبيّاً في الشّعائرِ الدِّينيّةِ والعلاقاتِ الاجتماعيّةِ بينَ أفرادِ المجتمعِ. وبالإمكانِ مشاهدةُ الآثارِ السّلبيّةِ لثقافةِ الاستهلاكِ والتّسوُّقِ حتّى في الحجِّ الذي يُفتَرَضُ أنْ يكونَ فيه المؤمنُ في ذِروةِ شعورِه الإيمانيّ.

وقد ظَهَرَ هناك التّغيُّرُ الأساسيُّ والجَذريُّ في علاقةِ الإنسانِ بالمادّةِ جَرّاءَ هذه العقليّةِ الاستهلاكيّةِ، وأعتقدُ أنَّ المشكلةَ الجوهريّةَ في عصرِنا الحاضرِ هي أنَّ الإنسانَ لا يحكُمُ المادّةَ، بل المادّةُ هي التي تحكمُه.

ونشاهدُ اليومَ هَيْمَنَةَ العقليّةِ نفسِها على العالَـــمِ الإسلاميِّ، كما نُشاهِدُ تحقُّقَ قلَقِ الرَّسولِ صلّى الله عليه وسلّم وتخوُّفِه الواردِ في الحديثِ[٢]. وفي هذا الصَّددِ نرى ارتفاعَ التَّوقُّعاتِ في عالَـــمِنا الذي تحوَّلَ فيه الطَّمَعُ والجَشَعُ إلى نمطٍ للحياةِ لا يكتفي بما في يدِه ولا يرضى بالقليلِ، بل يسعى دائماً وبسرعةٍ نحوَ الأوفرِ والأحدثِ.

مُشكلتُنا اليومَ هي النِّسيانُ بأنَّ الثَّروةَ الحقيقيّةَ هي القناعةُ، وأنَّ الأصلَ في الأشياءِ هي الوظيفةُ التي تؤدِّيها، مع أنَّ النَّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم يصفُ القَناعةَ بالعِفَّةِ وغِنَى النَّفْسِ[٣] وفي أحاديثَ أُخرى يَعُدُّ القَناعةَ من أسمى درجاتِ الشُّكْرِ[٤].

٢ أخرجه البُخاريّ عن عَمرو بن عوف الأنصاري وهو حليف لبني عامر بن لؤي، وكان شَهِدَ بدراً، أخبره: أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم بعث أبا عبيدة بن الجرّاح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو صالَحَ أهل البحرين، وأمّر عليهم العلاء بن الحضرميّ، فقدِم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصُّبح مع النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فلمّا صلّى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين رآهم، وقال: «أظنّكم قد سمعتم أنّ أبا عبيدة قد جاء بشيء؟»، قالوا: أجل يا رسولَ الله، قال: «فأبشروا [ص:٧٩] وأمّلوا ما يسركم، فوالله لا الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسَطَ عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتُهلككم كما أهلكتهم» صحيح البخاري، الجزية، ١، المغازي، ٢١، الرقاق، ٤٧؛ صحيح مسلم، زهد، ٦؛ الترمذي، القيامة، ٤٢٨؛ ابن ماجه، الفتن، ١٨، أحمد بن حنبل، المسند، ١٣٧/٤.

٣ أخرجه البخاريّ عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه: إنّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم حتّى نَفِدَ ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدّخِرَه عنكم، ومن يستعفِفْ يُعِفَّه الله، ومن يستغنِ يُغنِه الله ومَن يتصبّرْ يُصبِّرْه الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصّبر». صحيح البخاري، الزكاة، ١٨؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٢٤. وفي حديث آخر عن أبي هريرة، عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكنّ الغِنى غِنى النفس». صحيح البخاري، الرقاق، ١٥؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٢٠.

٤ عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا أبا هريرةَ كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أعبدَ النّاسِ، وكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أشكرَ النّاسِ، وأَحِبَّ للنّاسِ ما تُحِبُّ

وإنَّ القناعةَ التي تشبَّثْتُ بها ثقافتُنا وعَدَّتها «كَنْزاً لَا يَفْنَى»[٥] هي واحدةٌ من أهمِّ المفاهيمِ الأساسيّةِ والقِيَمِ الأخلاقيّةِ الإسلاميّةِ، لقد أصبحَ من المستحيلِ تقريباً ترميمُ ثقافةِ القناعةِ، وتطويرُ موقفٍ يقومُ بتحديدِ العلاقاتِ مع المادّةِ في إطارِ هذا المفهومِ؛ لأنَّه تمَّ نسيانُ هذا النَّوعِ من المصطلحاتِ والرُّموزِ الذِّهنيّةِ. وقد قالَ بعضُ الحكماءِ: «إنَّ مَن قَنِعَ كانَ غنيّاً وإن كان مُقِلًّا، ومَن لم يَقنعْ كانَ فقيراً وإنْ كان مكثراً».

عندَما تُشيرُ هذه العبارةُ بلَمْحَةٍ خاطِفَةٍ إلى الجانبِ النَّفْسِيِّ للموقفَين نرى في الواقعِ الجزءَ الثَّانيَ يُسلِّطُ الضَّوءَ على عقليّةِ عالَـــم اليوم.

وإنَّ الحديثَ النَّبويَّ الذي ذكَرَ أنَّ الثَّروةَ الحقيقيّةَ ليسَتْ بكَثرةِ المالِ، وإنّما بغِنى النَّفْس[٦] هو بمثابةِ توضيحٍ لعلاقةٍ سليمةٍ ستُقامُ مع المادّةِ وتتجاوبُ مع احتياجاتِ العصرِ. وأهمُّ تأثيرٍ لعقليّةٍ تتطوّر في هذا الاتجاه هو التَّخلُّصُ من عشقِ المالِ وعُبُوديّتِه؛ عبرَ إزالةِ حُبِّ المالِ من قلبِ صاحبِه، إذْ إنَّ إنسانيّةَ الإنسانِ تظهرُ من خلالِ العلاقاتِ التي تحدِّدُها هذه المفاهيمُ.

والقرآنُ الكريمُ يُؤكِّدُ دائماً على الاعتدالِ في النَّفَقاتِ حتَّى المشروعةِ منها، فكيف إذا وقعَ السَّرَفُ في غيرِ المشروعِ، فأضحى تبذيراً، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا, إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[٧]. فلعلَّنا في عالَـــمِ اليومِ نفهمُ قيمةَ هذا الإنذارِ القُرآنيِّ الواردِ في الآيةِ الكريمةِ بشكلٍ أفضلَ.

وإذا تأمَّلْنا أضرارَ الثَّقافةِ الاستهلاكيّةِ الحديثةِ المؤثِّرةِ في نمطِ حياةِ النَّاسِ وخياراتِهم وأخلاقِهم، يمكنُنا أنْ نفهمَ جيّداً حديثَ الرَّسولِ صلّى الله عليه وسلّم الذي عَدَّ فيه ارتداءَ الملابسِ البسيطةِ والقديمةِ من الإيمانِ[٨].

مَن تَرَكَ اللِّباسَ – الباهظَ والبَرّاقَ– تواضُعاً لله، وهو يَقْدِرُ عليه، دَعاه الله يومَ القيامةِ على رُؤوسِ الخلائقِ لِيُخيِّرَه مِن أيِّ حُلَلِ الإيمانِ شاءَ يَلْبَسُها، وهذا العُمْقُ يَظْهَرُ في الحديثِ[٩].

لنفسك تكنْ مؤمناً، وأحسِنْ جوارَ مَن جاورَك تكنْ مُسلماً، وأَقِلَّ الضَّحِكَ؛ فإنَّ كثرةَ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ». ابن ماجه، الزُّهد، ٢٤. وفي حديثٍ آخرَ عن زيد بن الأرقم قال: «لقد كُنَّا نقرأ على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ من ذهَبٍ وفِضَّةٍ لَابتغى إليهما آخرَ، ولا يَملأُ بطنَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ، ويتوبُ الله على مَن تاب». أحمد بن حنبل، المسند، ١١٧/٤.

٥ المناوي، فيض القدير، القاهرة ١٣٥٦، ٢٢٤/١.

٦ سبق تخريجه، صحيح البخاريّ، الرقاق، ١٥؛ صحيح مسلم، الـزّكاة، ١٢٠.

٧ سورة الإسراء، ٢٧/١٧.

٨ أخرجه أبو داود عن أبي أمامة، قال: ذكر أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوماً عنده الدُّنيا، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :«ألا تسمعون، ألا تسمعون، إنَّ البذاذةَ من الإيمان، إنَّ البذاذةَ من الإيمان» يعني التَّقَحُّل. أبو داود: التَّرجُّل٢، ابن ماجه: الزّهد. (البذاذة من الإيمان). أراد به: اطِّراحَ الشُّهرةِ في الملبسِ والإسرافِ فيه الدَّاعي إلى التَّبختُرِ والبَطَرِ. الاستذكار للقرطبيّ، ٣٣٠/١.

٩ أخرجه التِّرمذيّ عن سُوَيْدِ بنِ وَهْبٍ، عن رجلٍ من أبناءِ أصحابِ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن أبيه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «...ومَن تركَ لُبْسَ ثوبِ جمالٍ وهو يقدر عليه» قال بشر: أحسبُه قال «تواضُعاً» كساه الله حُلَّةَ الكرامة، ومَن زَوَّجَ لله تعالى توّجه الله تاجَ الـمُلْكِ». التِّرمذيّ، القيامة، ٣٩؛ أبو داود، الأدب، ٣؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٤٣٨/٤، ٤٣٩.

وهنا نريد أن نشير إلى أنّ الزّيَّ النّظيف والجميل ليس مردودًا في المصادر الإسلامية الأساسية. وإنما المقصود هنا، هو التكبّر، وسباق الغطرسة الذي يرمز إلى هذا التكبُّر المتناقض مع لباس التقوى المطلوب في القرآن الكريم.

وفي سياقِ إكمالِ الموضوعِ يمكنُنا تدوينُ ما يلي:

- عندما نلاحظُ هذا التّعبيرَ الرّمزيَّ عن اللّباسِ في أحاديثِ الرّسولِ صلّى الله عليه وسلّم وتنبيهَها على وظيفيّةِ هذا اللّباسِ، وإنْ كانَ قديماً أو مُوضَتُه فائتة، والاكتفاءِ به ما دامَ صالحاً للاستعمالِ دونَ الالتفاتِ إلى لومِ الآخرين وانتقادِهم، وإلى تلاعُباتِ وتحايُلاتِ وسائلِ الموضةِ والإعلانِ بشتّى أنواعِها؛ فعلينا أنْ نُعَبِّــرَ عن هذا العملِ باعتبارِه من الفضائلِ الإسلاميّةِ.

- إنَّ رَبْطَ هذا الخُصوصِ في الحديثِ الشّريفِ بالإيمانِ هو أمرٌ لافِتٌ للنَّظَرِ؛ لأنَّ الذي يَستعملُ الأشياءَ القديمةَ التي لــمَّا تَفْقِدْ وظيفتَها هو إنسانٌ رَفَضَ أنْ يكونَ مُسْرِفاً أو مُبَذِّراً أخاً للشَّيطانِ[١٠]؛ برفضِه التَّصرُّفاتِ المبذِّرةَ والمسرفةَ، ولم يكنْ عبدَ نفسِه، وبالأَحْرى عَبْدَ أمتعتِه بوقوعِه في شَرَكِ الشُّهرةِ والرِّياءِ، كما أنَّه رافضٌ لِأَنْ يكونَ تحتَ تأثيرِ الآخرين وسيطرتِهم من خلالِ سقوطِه في دوّامةِ الوسائلِ المؤثِّرةِ كصَرْعاتِ الموضةِ والإعلاناتِ التِّجاريّةِ؛ كونَه صاحبَ شخصيّةٍ متواضعةٍ قادرةٍ على العيشِ في ظلالِ القِيَمِ التي يُؤمنُ بها، وإنَّ مِثْلَ هذا الإنسانِ يكونُ قد تَصَرَّفَ بما يقتضيه إيمانُه. وبالتّالي فهذا التَّصرُّفُ هو مظهرٌ من مظاهرِ الإيمانِ.

- إنَّ هذا الإنسانَ القادرَ على الثَّباتِ على مواقفِه المستندةِ إلى مبادئَ راسخةٍ عندَه بهذا الشَّكلِ قد وضَعَ نموذجاً للمؤمنِ القادرِ على البقاءِ على ما هو مؤمنٌ به. وإنَّ هذا المؤمنَ قد تصرَّفَ وبلا ريبٍ بما يُوافق كونَ هذه الأشياءِ ليسَتْ هدفاً بحدِّ ذاتِها، وإنّما هي وسيلةٌ للبحثِ عن الآخرةِ وليس لِلَّهْثِ وراءَ مَتاعِ الدُّنيا. وقد قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[١١].

- إنَّ الميلَ الأساسيَّ في عقليّةِ الاستهلاكِ اليومَ هو أنَّ هذا الاستهلاكَ يُحفِّزُ الفردَ على الحِرْصِ على اقتناءِ أيِّ شيءٍ جديدٍ بصَرْفِ النَّظَرِ عن احتياجِه أو عدمِ احتياجِه إليه. وإنَّ هذا يَكْمُنُ في الأساسِ في كونِ علمِ الاقــتصادِ الحديثِ الذي ظَهَرَ بالتّزامُنِ معَ الثَّورةِ الصِّناعيّةِ قد استندَ إلى فكرةِ الاحتياجاتِ غيرِ المحدودةِ، ونتيجةً لذلك يَتِمُّ الإغواءُ بالرَّغَباتِ بعدَ إلباسِها ثوبَ الحاجةِ معَ تجاهُلِ حقيقةِ «أنَّ الشَّيءَ اللّامحدودَ هي الــمَطالبُ والرَّغَباتُ وليسَتِ الاحتياجاتِ».

١٠ سورة الإسراء، ١٧/٢٦-٢٧.
١١ سورة الأعراف، ٧/ ٢٦.

- إضافةً إلى أنَّ تنوُّعَ المنتَجاتِ ووفرتَها التي برزَتْ نتيجةً لاستخدامِ التِّقْنِيَّةِ الحديثةِ في الإنتاجِ قد ولَّدَتْ جوّاً تنافُسيّاً، وبناءً على ذلك فقد جعلَتْ تَنَوُّعَ وتَشَكُّلَ استراتيجيّةِ التَّسويقِ اضطراريّاً، خاصَّةً أنَّ عقليّةَ التَّسويقِ المحرِّضةَ على الحُبِّ والحرصِ على البضائعِ المنتَجةِ والمبنيّةِ على استراتيجيّة «بيعِ البرَّادِ أو المكيِّفِ لسُكَّانِ القُطْبِ وبيعِ المِدْفأةِ لأولئكِ الذين يعيشون في الصَّحراء» تبدو وكأنَّها قد نجحَتْ في جعْلِ الاستهلاكِ أشبهَ بنمطٍ للحياةِ، وذلك بخَلْقِ احتياجاتٍ مُخترَعةٍ وهميّةٍ باستخدام قُوَّةِ وسائلِ الإعلانِ التي جعلَتْ هدفَها نِقاطَ الضَّعفِ والميولَ والرَّغباتِ الـمُثْبَتَةَ بأبحاثٍ علميّةٍ، حتّى إنَّ تكاليفَ الإعلاناتِ التِّجاريّةِ والموضةِ وحفَلاتِ عُرُوضِ الأزياءِ وغيرَها من المصاريفِ يَتِمُّ تحصيلُها من المستهلكِ نفسِه.

ومعَ ذلك فإنَّ المنتَجَ الواحدَ لا يشتملُ على كافّةِ المِيزاتِ التي توصَّلَتْ إليها التِّقْنِيّةُ، وإنَّما على قسمٍ مُحدَّدٍ منها، فيتمُّ إعدادُها وتركيبُها، ومِن ثَمَّ إنتاجُها وعَرْضُها في الأسواقِ بأقربِ وقتٍ وبميزاتٍ إضافيّةٍ على أنَّها مُنتَجاتٌ جديدةٌ، أو تصميمُ المنتَجاتِ نفسِها بأشكالٍ جديدةٍ، ويكونُ بذلك قد جُعِلَ الاستهلاكُ السَّريعُ يدومُ بحالةٍ متواصلةٍ وفعّالةٍ.

ويكفي لكلِّ امرئٍ في يومِنا لكي يَعِيَ هذه الحقيقةَ أنْ ينظرَ إلى القـُوَّةِ التَّحفيزيّةِ للعلاقةِ الكائنةِ معَ أحدِ الأجهزةِ الإلكترونيّةِ التي يستخدمُها كجهازِ الهاتفِ أو الحاسوبِ أو السَّيّارةِ، ولعلَّ من فُضُولِ الكلامِ قولَنا: إنَّ هذه المصنوعاتِ الجديدةَ قد جلبَتْ للمستهلِكِ نفَقاتٍ ثقيلةً إلى حَدٍّ ما.

- إنَّ أكبرَ تأثيرٍ سلبيٍّ للمُوضَةِ والإعلانِ اللَّذَين يُشكِّلانِ وسيلةً مُهمّةً للاستهلاكِ هو أنّها تُصوِّرُ للمتلقّي المنتَجَ الذي تُعَظِّمُه على أنَّه يُلغي ويُعطِّلُ ما قبلَه من أشياءَ كانَتْ مستعمَلةً؛ وذلك بتشويهِ صورتِها على أنَّها قديمةٌ وباليةٌ، وتجعلُ لها مُنَفِّراتٍ نفسيّةً أيضاً.

- إنَّ هذه الوسائلَ الإعلانيّةَ تُشَكِّلُ ضغطاً معنويّاً قويّاً حيالَ المنتَجاتِ القديمةِ من جهةٍ، وتقومُ بالتَّحريضِ على اقتناءِ الأشياءِ الجديدةِ من جهةٍ أُخرى، وتضغطُ على الإنسانِ بقوّةٍ من كلا الجهتين.

- إنَّ هذه العمليّةَ ليسَتْ مُقتصِرةً على الملابسِ المتداوَلةِ، ولكنّها متعلِّقةٌ أيضاً على نحوٍ وثيقٍ بمجالاتِ الحياةِ الأُخرى كافّةً؛ مِن قَصَّاتِ الشَّعْرِ إلى الإكسسواراتِ، ومن أثاثِ المنازلِ وصولاً إلى قِطَعِ غيارِ السَّيّاراتِ...، فإنَّ التَّمسُّكَ والحرصَ والإلحاحَ على العلامةِ التِّجاريّةِ والصُّورةِ والنَّمَطِ المتجدِّدِ يُبرزُ بُعْداً آخرَ للاستهلاكِ اليومَ.

- ومعلومٌ أنَّ التَّطوُّراتِ التِّقْنِيّةَ تُسهمُ معَ وسائلِ الإعلامِ في سُرعةِ التَّغييراتِ المطلوبةِ من خلالِ الموضةِ والإعلاناتِ التِّجاريّةِ، وتقومُ بنَشْرِ هذه الأنماطِ الجديدةِ وتعميمِها، وهذا عنصرٌ آخَرُ مُسَرِّعٌ لعمليّةِ الاستهلاكِ.

- إنَّ مجتمعاتِنا اليومَ قد بُرْمِـــجَتْ على نمطِ حياةٍ اجتماعيّةٍ وثقافيّةٍ مُصَمَّمَةٍ مُسبَقاً، ومَبْنِيَّةٍ على ثقافةٍ استهلاكيّةٍ وعلى نمطٍ يُحاكي لاعبي الرّياضةِ ومشاهيرَ الغِناءِ والمسرحِ والشَّخصيّاتِ السّياسيّةَ ومشابهٍ لما نراهُ في الإعلاناتِ التّجاريّةِ وأهلِ الموضةِ والكُتّابِ ونجومِ التّلفازِ وأبطالِ السّينما والمسابقاتِ التي تُبرِزُ هؤلاءِ على أنّهم النّموذجُ الذي ينبغي احتذاؤُه، وكذلك مواضيعُ المسابقاتِ وبرامجُ المنوّعاتِ والأغاني والعلاماتُ التّجاريّةُ والموسيقى والشّعاراتُ الإعلانيّةُ والفيدْيوهات وتشكيلُ متعةٍ وإغراءاتٍ مشتركةٍ من خلالِ النّماذجِ القياديّةِ والمحافلِ الثّقافيّةِ ذاتِ الشّعبيّةِ كالحفَلاتِ التّكريميّةِ الـــمُبهِرة، وعلى هذا يتمُّ برمجتُها وتشكيلُها وتثبيتُ صورتِها بهذا الاتّجاهِ، وبالتّالي يكونُ المجتمعُ قد اقتنعَ بها وتشرَّبَها بدونِ وعيٍ مباشرٍ؛ لأنَّ هذه الإعلاناتِ تُخاطِبُ عقلَه الباطنَ ـــ ويتمُّ انتشارُ هذه المسلَّماتِ بشكلٍ سريعٍ ومؤثِّرٍ في كافّةِ شرائحِ المجتمعِ.

- إنَّ النّماذجَ القياديّةَ والوسائلَ التي تُدَجِّنُ الثّقافةَ الشّعبيّةَ ترسمُ النّمَطَ المعيشيَّ للمجتمعاتِ، وبهذا تكونُ ثقافةُ الشّعبِ قد خضعَتْ للضُّغوطِ وانكسرَتْ فيها نِقاطُ المقاومةِ. وعلى هذه الطّريقةِ وبكلِّ سهولةٍ يمكنُ إنتاجُ الاحتياجاتِ الافتراضيّةِ، وتعظيمُ الاحتياجاتِ النّفْسيّةِ، وإعاقةُ الاختياراتِ الواعيةِ بطريقةٍ إلزاميّةٍ، وتجري التّطبيقاتُ الاستراتيجيّةُ حولَ المطالبِ والإغراءاتِ والتّحفُّزِ بطريقةِ الإقناعِ السِّرّيّ من خلالِ الموضةِ والإعلانِ والقيامِ بعمليّةِ التّضليلِ وإبقاءِ رغبةٍ مُلِحّةٍ للتّمسُّكِ بالانفعالاتِ الجديدةِ.

- تمَّ تشكيلُ آليّةٍ تجعلُ المنتِجَ المؤسَّساتيَّ يلعبُ الدَّورَ الرَّئيسيّ، بينما المستهلكُ يكونُ خارجَ النِّطاقِ، وذلك في كلِّ آليّاتِ القرارِ. ومِن ثَمَّ تنشأُ هنالك ثقافةٌ إمبرياليّةٌ تتحوَّلُ إلى هدفٍ اجتماعيٍّ؛ بفرضِ طلباتِ المنتِجِ المؤسَّساتيِّ على المجتمع، معَ تأمينِ الحركةِ الاستهلاكيّةِ بطريقةِ وسائلِ السُّرعةِ المفتعَلة[١٢].

عندَما يفيدُ أحدُ علماءِ الاجتماعِ الغربـــيّـــين «زيجمونت بومان Zygmunt Bauman» أنَّ الابتكاراتِ الثّقافيّةَ هي التي تُقـــوّي وترسِّخُ الجوانبَ الإنسانيّةَ الهشّةَ، وأنّها ورَشاتٌ بارعةٌ في تأمينِ بقائها واستمراريّتِها[١٣] فيكونُ بهذا مُحِقّاً ومُصيباً في الوقتِ نفسِه. لذلك يطرأُ تغييرٌ جذريٌّ في كلِّ الإجراءاتِ التي تَصُبُّ في وضْعِ الصُّورةِ البَدنيّةِ من حَلَقاتٍ، ووُشومٍ وقَصّاتِ شَعرٍ وعُطورٍ ومكياجاتٍ وأنماطِ المنظرِ التّجميليِّ وملابسَ وأولويّةٍ في الطّعامِ والشّرابِ وأنواعِ استغلالِ أوقاتِ الفراغِ وخياراتِ العُطلةِ وأساليبِ التّرفيهِ والاحتفالِ

١٢ انظر حول الموضوع: ز. بائمان، Bireyselleşmiş Toplum (المجتمع الانفرادي) (المترجم ي. ألاكون)، إسطانبول ٢٠٠٥، ص. ٢٧٣–٢٧٤؛ باءودلّار، Tüketim Toplumu (المجتمع الاستهلاكي)، (المترجم ه. دليجاي– ف. كاسكين)، إسطانبول ٢٠١٠، ص. ٨١–٨٣، أ. تورينا، Modernliğin Eleştirisi (نقد الحداثة)، (المترجم ه. توفان)، إسطانبول ٢٠١٠، ص. ٣١٠–٣١٢، ٣٢٦–٣٢٩؛ إ. شابجي أوغلو، Modernleşen Türkiye'de Din ve Toplum (الدين والمجتمع في تركيا الحديثة)، أنقرة ٢٠١١، ص. ٨٥–٩٧.

١٣ بائمان، ٢٧٦–٢٧٧

بالأيّامِ الخاصَّةِ والعنايةِ بها، وتفضيلِ الأشياءِ ابتداءً من الإكسسواراتِ وانتهاءً بالسَّيّاراتِ وأسلوبِ الإعجابِ الفرديّ في أشكالِ المحادثةِ[١٤].

كانَ انقسامُ العالَـــمِ إلى دُوَلٍ مُتقدِّمةٍ ومُتطوِّرةٍ ودُولٍ مُتأخِّرةٍ قد أدَّى إلى ضغوطٍ نفسيّةٍ بالشَّكلِ المعيشيِّ الغربيِّ الحديثِ على الدُّولِ الأُخرى، وبالتَّالي فإنَّ النَّمَطَ المعيشيَّ الغربيَّ والاستهلاكَ بالطَّريقةِ الغربيّةِ بدا وكأنَّه مِيْزَةٌ كبيرةٌ.

وقد «صَرَّحَ جورج ريتزر G. Ritzer» بأنَّ «الـــــ ماكدونالدز McDonalds» هو: «نمطٌ معيشيٌّ أمريكيّ». وأنَّ «التماكدونالديّة McDonaldization» ليسَتْ إدارةَ مطعمٍ فحَسْب، بل هي تَرمز لصيغةِ تصريفٍ حديثةٍ لها تأثيرُها الاجتماعيُّ من كلِّ النَّواحي الأُسَريّةِ والسِّياسيّةِ والغِذائيّةِ وأوقاتِ الفراغِ والسِّياحةِ والصِّحَّةِ وحياةِ العَمَلِ والدِّراسةِ، وتؤثِّرُ في الوقتِ نفسِه في المؤسَّساتِ التي يبدو عليها أنَّها تعيشُ الجمودَ.

وصَرَّحَ بأنَّها مرحلةٌ تُؤثِّرُ في بعضِ مناطقِ العالمِ إشعارًا بأنَّ لها وجوداً. وقد وصلَ الماكدونالدز بآلافِ فروعِه إلى كافَّةِ أنحاءِ العالمِ من بينِها مَكَّةُ المكرَّمةُ. وقد تمَّ تحويلُ أوّلِ مطعمٍ لماكدونالدز الذي يُجري هذه المهامَّ إلى مُتْحَفٍ بناءً على طَلَبِ الزَّبائنِ[١٥]. ولعلَّ بناءَ علاقةٍ حميميّةٍ مع هذه المطاعمِ، وإثارةَ ضَجَّةٍ كبيرةٍ حين افتتاحِها في أيِّ قريةٍ صغيرةٍ في العالمِ، تمنحُها القُدْسِيَّةَ، كما أنَّ تَسْميتَها «الكاتدرائيّة الدِّينيّة للاستهلاك» يُوضِحُ لنا مدى التَّأثيرِ الذي تحظى به[١٦].

إنَّ أشكالَ الاستهلاكِ الغربيِّ الرّأسماليِّ وما تُسمَّى بالماكدونالديّةِ أو «الوجَباتِ السَّريعةِ FastFood» أو بالمختصرِ المفيدِ ثقافةَ «الميكيورلد McWorld»[١٧]، قد أوقعَتِ النَّاسَ في حِبالِها وبطريقتِها العَقَائديّةِ أو الصُّوفيّةِ الخاصَّةِ بها، واستولَتْ على أذهانِهم من خلالِ الوسائلِ الحديثةِ وحوَّلَتْ عاداتِهم التي يُمارسونها في الحياةِ اليوميّةِ والنَّاتجةِ عن ثقافتِهم المحليّةِ إلى حوافزَ ودوافعَ يقومُ بنَسْفِها وإزالتِها أو يُقلِّلُها ويضعِّفُها على الأقلِّ.

فمثلاً ليس من السَّهلِ في يومِنا تفضيلُ أحدِ الأطعمةِ أو الأشربةِ المحليّةِ والتَّقليديّةِ على مائدةِ إفطارٍ في جوٍّ مُؤلَّفٍ من أجناسٍ مختلفةٍ من النَّاسِ؛ لأنَّ التَّرجيحَ في مثلِ هذه الأمكنةِ يَبرزُ كإحدى الوسائلِ التي تُحدِّدُ الصُّورةَ والحالةَ الاجتماعيّةَ للأشخاصِ. وعلى هذا فإنَّ لُبْسَ الماركاتِ المعيّنةِ في الاجتماعاتِ المهمّةِ وإبرازَ

١٤ شابجي أوغلو، ص. ٩٧.

١٥ Toplumun McDonaldlaştırılması (تماكدونالدية المجتمع)، Sosyoloji: Başlangıç Okumaları (قراءات تمهيدية)، (المحرر أ. جيدان/ المترجم ج. ألتايلار)، إسطانبول ٢٠١٠، ص. ٥٧-٥٩.

١٦ ريتزار، ٦٠-٦١

١٧ شابجي أوغلو، ص. ٨٣-٩١.

رمزِ تلك الماركاتِ أو شِعارِها إنْ أمكَنَ؛ كلُّ ذلك يمنحُ صاحبهَا صورةً مختلفةً وشعوراً بالامتيازِ من غيرِه. والحقيقةُ أنّه في هذه الأيّامِ وفي هذه المرحلةِ يبدو أنَّ تحذيرَ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم الذي وَرَدَ في الحديثِ قد تحقّقَ: عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم قال: «لَتَتّبِعُنَّ سننَ الذين مِن قبلِكم شِبْراً بشبرٍ، وذِراعاً بذراعٍ، حتّى لو دخلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتبِعْتُمُوْهُم»، قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، اليهودُ والنّصارى؟ قالَ: «فمَنْ؟»[١٨]

لقد حذّر النبي صلّى الله عليه وسلّم في حديثه الشريف المسلمين من أيّ تقليد أعمى مخالف لنمط حياتهم وقيمهم الثقافية، ولكن – مع الأسف – نرى أن هذا التحذير لم يجد صداً واسعاً عند المسلمين اليوم.

كلُّ هذا التّغيُّرِ والانحطاطِ الثّقافيِّ المستندِ إلى التّقليدِ في الذِّهْنيّةِ الاستهلاكيّةِ يُؤَثِّرُ سلبيّاً في السُّلوكِ البَشَريِّ وفي جميعِ المؤسّساتِ؛ بما في ذلك الأُسرةُ، كما تؤثِّرُ في مِيزانيّةِ الأُسرةِ ابتداءً من اختيارِ الزّوجِ لحفلِ الزّفافِ...، كما تؤثِّرُ في اللُّغةِ المحكيّةِ إلى الموسيقى، وتؤثِّرُ في العلاقاتِ الاجتماعيّةِ إلى العلاقاتِ داخلَ الأُسرةِ؛ لأنَّ تغيُّرَ المفاهيمِ وتحوُّلَ العالَـمِ الذِّهنيِّ يُؤثِّرُ في تصوُّرِ (تخيُّلِ) العالَـمِ، ويُعيدُ تشكيلَ كلِّ شيءٍ من جديدٍ.

وصفوةُ القولِ: إنَّ نظرةَ العالَـمِ الحديثِ للأشياءِ وشِعارَه «أَنتِجْ لِتستهلكَ» غيّرَتْ علاقتَها تماماً معَ هذه الأشياءِ. ويجبُ أنْ نقولَ: إنّها حوّلَت «الإنسان الذي يَحْكُمُ المادّةَ» إلى نمطِ «إنسان تحكمُه المادّةُ».

كما أدّتْ إلى نِسيانِ حقيقةِ أنَّ الغِنى (الثّروة الحقيقيّة) هو غِنى النَّفْسِ[١٩]، وفتحَتِ البابَ أمامَ النَّفَقاتِ غيرِ الضّروريّةِ في المجتمعِ بمؤسّساتِه وأفرادِه، وغيّرَتْ أولويّاتِ الإنفاقِ، وأدّتْ إلى الإسرافِ والتّبذيرِ؛ بسببِ عرْقَلةِ العلاقاتِ بينَ النّاسِ النّاتجةِ من الكراهيةِ المتكوّنةِ ضِدَّ الأثرياءِ، وأخلّتْ بتوازُنِ الأُمّةِ في نَواحٍ كثيرةٍ، وكادَتْ نتائجُها تَعْصِفُ بالأُمّة. ويمكنُ القولُ: إنَّ عادةَ استهلاكِ السِّلَعِ الكماليّةِ اليومَ توغَّلَتْ حتّى في المجالاتِ المعنويّةِ الرُّوحيّةِ.

ونرى اليومَ صورةَ الجاهليّةِ الحديثةِ في التّكاثُرِ «التّباهي بالكَثرةِ» بالنَّفَقاتِ غيرِ المسوَّغَةِ النّاجمةِ عن ذِهنيّةِ «اِكسَبْ كثيراً، واستهلكْ بسُرعةٍ وباستمرارٍ، والصُّورةُ جذّابةٌ ومُثيرةٌ، والرّاحةُ مضمونةٌ!» فعّالةً حتّى في فريضةِ الحَجِّ التي يُفترَضُ أنْ يعيشَ فيها المسلمون قِمّةَ الشُّعورِ الرُّوحيِّ. والمسلمون في النِّهايةِ نجحُوا في إنتاجِ طَبَقَتِهم الرّاقيةِ العائمةِ في الفَخْر!

١٨ صحيح البخاريّ، الأنبياء، ٥٠، الاعتصام، ١٤؛ صحيح مسلم، العلم، ٦؛ ابن ماجه، الفتن، ١٧؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣٢٥/٢، ٣٢٧، ٣٣٦، ٣٣٧، ٤٥٠، ٥١١، ٥٢٧؛ ٨٤/٣، ٨٩، ٩٤.

١٩ سبق تخريجه، صحيح البخاريّ، الرّقاق، ٥١؛ صحيح مسلم، الزّكاة، ١٢٠؛ التّرمذيّ، الزّهد، ٤٠؛ ابن ماجه، الزّهد، ٩.

وأشارَ النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم إلى نُقطةٍ في غايةِ الأهميّةِ في حديثِ جبريلَ المشهورِ الذي ذَكَرَ فيه علاماتِ القيامةِ قائلاً: «وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطاولون في البُنْيان»[٢٠]. ويمكنُ تفسيرُ هذا الحديثِ من خلالِ عالَـــمِنا اليومَ مِن وجهاتِ نَظَرٍ مختلفةٍ هي:

أوّلاً: ظَهَرَ من خلالِ تعبيراتِ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم الرّمزيّةِ في هذا الحديثِ مثل: «رِعَاءَ الشَّاءِ»، و«التَّطَاوُل في البُنْيَانِ»، عقليّةٌ أدَّتْ إلى انتشارِ «أغنياءِ غِلاظ الطَّبْع» نَسُوا ماضيَهم وحمّلُوا للأشياءِ معانيَ مختلفةً واستصغَروا الآخرين «لِيَمْلِكوا الأفضلَ» و«ينالوا الأكثرَ» أو «يُحدِّدوا مكانتَهم ومكانةَ مَن حولَـــهم مِن النَّاسِ بحَسَبَ ما يملكون من الأشياءِ» مُقْدِمين على المنافسة في سبيل الكَثْرةِ، والماركةِ (العلامة التّجاريّة)، والموديلِ (النّموذج)؛ مُبشِّرين باقترابِ قيام السَّاعة.

ثانياً: يمكنُنا القولُ: إنَّ المبانيَ المرتفعةَ التي عدَّها النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم في حديثِه علامةً على اقترابِ قيامِ السَّاعةِ قد أشارَتْ إلى بُعْدٍ آخرَ للقيامةِ، فاليومَ تبدو «ناطِحاتُ السَّحابِ» العِمْلاقةُ التي ترمزُ إلى الرَّأسماليّةِ المتوحِّشةِ في نِطاقِ هذا الحديثِ. وغيرُ ممكنٍ القولُ بعدمِ وقوعِ قيامةِ الإنسانيّةِ وسْطَ علاقاتٍ غيرِ سليمةٍ أخذَتِ المادّةَ وتركَتِ المعنى، وركَّزَتْ على السُّوقِ والنُّقودِ وأهملَتِ الإنسانَ وتركتْه مريضاً وحرمَتْه من الدَّواءِ وحتَّى من الماءِ. في مثلِ هذا العالَـــمِ مِن المستحيلِ أنْ نتحدَّثَ عن حضارةٍ تتكوَّنُ من هيكلٍ مؤسَّسيٍّ ناتجٍ عن تضحيةٍ وعلاقاتٍ إيثاريّةٍ.

ثالثاً: إنَّ السُّكْنَى في العمارةِ الحديثةِ اليومَ هي بمثابةِ المباني المرتفعةِ التي عَدَّها النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم من مظاهرِ يومِ القيامةِ. فهذه الشُّقَقُ والعماراتُ المتعدِّدةُ الطَّوابقِ الموجودةُ داخلَ مواقعَ سكنيّةٍ عِملاقةٍ معزولةٍ عن البيئةِ بإجراءاتٍ أَمْنِيَّةٍ مُشدَّدةٍ، هي ليسَتْ إلَّا قيامةَ عائلاتٍ يعيشون في عُزْلةٍ وسْطَ حُشُودٍ مُجاورةٍ يَجهلُ بعضُها بعضاً، فالحياةُ في النِّظامِ الرَّأسماليِّ الحديثِ تتوجَّهُ أو تُوَجِّهُ النَّاسَ إلى كلِّ ما يُمكنُ استخدامُه كرأسِ مالٍ.

ومِن الـــمُحزِنِ للغايةِ نَظَرُ هذا النِّظامِ إلى كرامةِ الإنسانِ كرأسِ مالٍ أو مَتاعٍ يُستهلَكُ. والشَّيءُ المحزنُ والمؤلِـــمُ أكثرَ هو العيشُ في زمانٍ أصبحَ فيه جسمُ الإنسانِ أداةَ استهلاكٍ تُباعُ وتُشترى، والمثالُ الأكثرُ شيوعاً في هذا الشَّأنِ هو عَرْضُ بعض الفتياتِ عُذْرِيّتهم للبيعِ من خلال إعلاناتٍ صَحَفيّة لتأمين احتياجاتهم المختلفة، وانتشار الجنس في عالمنا الحاضر كنوع من الاقتصاد هو مثال كاف لتفسير ما نعنيه.

٢٠ أخرجه الإمامان عن أبي هريرة رضي الله عنه وابن حبّان عن عمر رضي الله عنه قال: سألَ رجلٌ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن السّاعة، فقال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ مِن السّائل» قال: فما أمارتُها؟ قال: «أنْ تَلِدَ الأَمَةَ ربَّتُها، أو ربُّها، وأنْ ترى الحُفاةَ العُراةَ العَالةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يتطاولون في البُنْيان». صحيح البخاريّ، الإيمان، ٣٧.صحيح مسلم، الإيمان، ١، ٥، ٤؛ ٧؛ أبو داود، السّنّة، ١٦؛ التّرمذيّ، الإيمان، ٤؛ النّسائيّ، الإيمان، ٥، ٦؛ ابن ماجه، مقدّمة، ٩، الفتن، ٢٥، أحمد بن حنبل، المسند، ٢٧/١، ٥٢، ٣١٩.

وتعليقاً على هذه النّتيجةِ نقولُ: إنَّ جُنونَ الاستهلاكِ الحديثِ وما أنشأَهُ من ثقافةِ الإسرافِ لا يُضِرُّ بالعلاقاتِ بينَ النّاسِ فقط، بل يزيدُ التّكاليفَ خلالَ تأسيسِ الأُسرةِ (مثل الزّواج، والخُطوبة، والزّفاف... إلخ)، ويضعُ ذوي الدّخْلِ المحدودِ تحتَ دُيُونٍ طويلةِ المدى. كما أنَّ تنوُّعَ الطَّلَبِ معَ مرورِ الزّمنِ يؤثّرُ في ميزانيّةِ الأُسرةِ وعلاقاتِها بشكلٍ سلبيٍّ. وطلباتُ الأولادِ وخاصّةً المراهقين منهم من والديهم للأشياءِ نتيجةٌ إلزاميّةٌ مناسِبةٌ لأعمارِهم، وهذا يضعُ العائلاتِ ذاتِ الدّخْلِ المنخفِضِ تحتَ عِبْءٍ كبيرٍ. وهذا الوضعُ يؤدّي إلى أزمةٍ خطيرةٍ للعائلاتِ ذاتِ الدّخْلِ المحدودِ ويمنعُ سعادتَها.

كيف ينبغي أنْ يكونَ موقفُ المسلمين ضدَّ أيديولوجيّةِ الـــمُتعةِ، وعَرْبَدَةِ الاستهلاكِ، ومخاطرِ عقليّةِ الرَّأسماليّةِ المذكورةِ أعلاه؟ ويمكنُنا طرحُ أجوبةٍ على هذا السُّؤالِ على النَّحْوِ التّالي:

أوّلاً: ينبغي التّأكيدُ على أنَّ الثّروةَ والإنفاقَ ليسَتْ مسألةً مَعيبةً من حيثُ المصدران الأساسيّان للإسلام: القرآنُ والسُّنّة، والمقصودُ هنا أنّه ليس مِن الصّوابِ أنْ يميلَ الإنسانُ إلى الدُّنيا ويضحّيَ بالآخرةِ من أجلِ الدُّنيا ويستسلمَ لرغباتِه[٢١].

لا ينبغي أنْ يُفْهَمَ من هذه الانتقاداتِ الموجّهةِ هنا لأيديولوجيّةِ المتعةِ ولعربدةِ الاستهلاكِ أنَّ هناك تجاهُلاً للدُّنيا أو للثّرواتِ الدُّنيويّةِ. ليس من الممكنِ أنْ نُفكِّرَ في مثلِ هذا الشّيءِ، والرّسولُ صلّى الله عليه وسلّم يُبَيّنُ لنا النّتائجَ السّلبيّةَ للفقرِ قائلاً: «كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كُفْراً، وكادَ الحَسَدُ أنْ يَغْلِبَ القَدَر»[٢٢]. والمعروفُ عنه أيضاً – كما رَوَتْ عائشةُ ـــ رضي الله عنها ـــ أنّه صلّى الله عليه وسلّم استعاذَ باللهِ مِن شَـــرِّ فتنةِ الفقرِ[٢٣].

إذاً على المسلمِ أنْ يبتغيَ النِّعَمَ التي أَنْعَمَ بها اللهُ عليه[٢٤]، وأنْ يَتحرَّى طُرُقَ الكَسْبِ الحَلالِ[٢٥]، وإقامةُ التّوازنِ بينَ الدُّنيا والآخرةِ[٢٦]، وألّا يخضَعَ للمادّةِ[٢٧]، بل يملكُ العقليّةَ التي يسيطرُ من خلالِـــها على المادّةِ[٢٨]. ويسعى للإنفاقِ من أصولِه المادّيّةِ لكسبِ مَرضاةِ اللهِ والابتعادِ عن البُخْلِ.

٢١ {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}. سورة النّازعات، ٣٧/٧٩-٣٩.

٢٢ عن أنس، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كُفراً، وكادَ الحسدُ أنْ يغلِبَ القَدَر». قضائيّ، مسند الشّهاب (نشر. حمدي السّلفيّ)، بيروت ١٤٠٧/١٩٨٦؛ بيهقيّ، شُعَب الإيمان، الرّياض ١٤٢٣/٢٠٠٣، ٩/١٢.

٢٣ عن عائشةَ (ر) أنَّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كانَ يدعو بهؤلاءِ الدّعَواتِ: «اللّهُمّ إنّي أعوذُ بكَ مِن فتنةِ النّارِ وعذابِ النّارِ، ومن فتنةِ القبرِ وعذابِ القبرِ، ومن شَرِّ فتنةِ الغِنى، وشَرِّ فتنةِ الفقرِ، ومن شرِّ فتنةِ المسيحِ الدَّجّالِ، اللّهُمّ اغسلْ خطاياي بماءِ الثّلجِ والبَرَدِ، ونَقِّ قلبي من الخَطايا، كما نَقّيْتَ الثّوبَ الأبيضَ من الدّنَسِ، وباعِدْ بيني وبينَ خطاياي كما باعدْتَ بينَ المشرقِ والمغربِ، اللّهُمّ إنّي أعوذُ بكَ من الكَسَلِ والـــهَرَمِ، والمأثمِ والمغرَمِ». أبو داود، الأدب، ١٠١؛ النّسائيّ، السّهو، ٩٠، الاستعاذة، ١٦، ٢٩؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٢٦/٥، ٢٩، ٤٢، ٤٤؛ أنظر أيضاً: ٥٧/٤، ٢٠٧.

٢٤ {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ. (سورة البقرة، ١٩٨/٢)؛ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. (سورة الجمعة، ٠١/٦٢).

٢٥ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}. (سورة البقرة، ١٦٨/٢)؛ انظر أيضاً: سورة النّساء، ٢٩/٤؛ سورة المائدة، ٨٨/٥؛ سورة المؤمنون، ٥١/٢٣؛ صحيح مسلم، الزّكاة، ٦٥؛ التّرمذيّ، التّفسير، ٣٦/٢.

٢٦ {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}. (سورة القصص، ٧٧/٢٨).

٢٧ سبق تخريج الآيات، سورة آل عمران، ١٨٠/٣؛ سورة النّساء، ٣٧/٤؛ سورة الإسراء، ١٠٠/١٧؛ سورة محمّد، ٣٨/٤٧؛ سورة الحديد، ٧/٥٧، ١٠، ٢٤؛ سورة الـــهُمَزة، ٢/١٠٤-٤.

٢٨ سورة البقرة، ١٧٧/٢؛ سورة إبراهيم، ٣١/١٤؛ سورة الحشر، ٩/٥٩؛ سورة التّغابُن، ١٦/٦٤.

ثانياً: يُمكنُ للمسلمِ إنفاقُ مالِه الذي اكتسبَه من الحلالِ وأدَّى منه التزاماتِه الماليّةَ كالزّكاةِ، والصَّدَقاتِ والضَّرائبِ كما يحلو له؛ بشرطِ أنْ يكونَ هذا الإنفاقُ مُباحاً خالياً من الإسرافِ. كما وَرَدَ في الحديثِ الشَّريفِ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ أنْ يَرَى أَثَرَ نعمتِه على عَبْدِه»[٢٩].

وفي هذا السِّياقِ يَجِبُ على المسلمِ من حيثُ المبدأُ الاكتفاءُ بالشَّيءِ مادامَ يحافِظُ على وظيفيّتِه، رغمَ امتلاكِه ثمنَ الحصولِ على أفضلِ الأشياءِ الجديدةِ والحديثةِ. في الواقعِ إنَّ هذا الموقفَ هو نوعٌ من أنواعِ القَناعةِ التي عُدَّتْ من أعلى درجاتِ الشُّكْرِ[٣٠].

ثالثاً: الاعتدالُ في الإنفاقِ كما هو الحالُ في جميعِ الأمورِ. والقرآنُ الكريمُ نفسُه يأمرُنا باتِّخاذِ موقفٍ مُتوازنٍ من الإنفاقِ بعيداً عن الإسرافِ والبُخْلِ[٣١]، وقد أمَـــرَ النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم أيضاً بالتزامِ الطَّريقِ الوَسَطِ كمبدأٍ أساسيٍّ في كلِّ الأمورِ[٣٢].

وفي هذا الصَّدَدِ لا يجوزُ للمسلمِ أنْ يُنْفِقَ جميعَ أموالِه ولو كانَ من أجلِ الخيرِ؛ لمخالفةِ هذا المبدأِ، وفي هذه الحالةِ لا يجوزُ أنْ يُنْفِقَ أكثرَ من ثُلُثِ ممتلكاتِه[٣٣].

على سبيلِ المثالِ: إذا أرادَ شخصٌ أنْ يُنفِقَ مالَه كلَّه في سبيلِ اللهِ، أو أرادَ أنْ يتبرَّعَ به لأحدِ المساجدِ مثلاً، اقتَصرَ هذا التَّبرُّعُ على ثُلُثِ مالِه فقط. ويبقي ثُلُثا مالِه معه ولا يُقبَلُ تبرُّعُه.[٣٤]

رابعاً: الإنسانُ بطبعِه طَمَّاعٌ وطموحٌ تجاهَ المالِ كما وصفَه النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بقولِه: «لو أنَّ لابنِ آدمَ وادياً مِن ذَهَبٍ أَحَبَّ أنْ يكونَ له واديان، ولنْ يملأَ فاهُ إلَّا التُّرابُ»[٣٥]. لهذا السَّببِ نرى النَّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم يستعيذُ مِن شَرِّ الغِنى قَدْرَ ما يستعيذُ من شَرِّ الفقرِ[٣٦].

٢٩ أخرجه التِّرمذيُّ عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدّه، أنَّ النَّبيَّ r قال: «كلوا واشربوا والبَسوا وتصدَّقوا فإنّ الله عزَّ وجلّ يُحِبُّ أنْ يَرى أثرَ نعمتِه على عبدِه». التِّرمذيّ، الأدب، ٥٤؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣١١/٢؛ ٤٣٨/٤.

٣٠ سبق تخريجه، ابن ماجه، الزّهد، ٢٤.

٣١ {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}. (سورة الإسراء، ٢٩/١٧)؛ {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}. (سورة الفرقان، ٦٧/٢٥).

٣٢ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «خير الأعمال أوسطها». صحيح البخاريّ، الصّوم، ٥١، الزّكاة، ٠٣، التّهجُّد، ٢٠، النّكاح، ١، الجهاد، ٧٠، الاعتصام، ٥؛ صحيح مسلم، الزّكاة، ٤٠؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٢٢٦/٤، ٣٤٧.

٣٣ عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: مرضْتُ عامَ الفتح حتّى أشفيتُ على الموتِ، فعادَني رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلتُ: أي رسول الله، إنّ لي مالاً كثيراً وليس يَرِثُني إلّا ابنةٌ لي، أفأتصدَّقُ بثُلُثَي مالي؟ قال: «لا». قلتُ: فالشَّطْرُ؟ قال: «لا». قلتُ: فالثُّلُثُ؟ قال: «الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كثيرٌ، إنّك أنْ تترك ورثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أنْ تتركَهم عالةً يتكفَّفون النّاسَ». صحيح البخاريّ، الوصايا، ٢، ٣، النّفقات، ١، الفرائض، ٦؛ صحيح مسلم، الوصيّة، ٥، ٧، ٨، ١٠؛ أبو داود، الفرائض، ٣.

٣٤ انظر: صفوت كوسا، إساءة استخدام الحقّ في الشّريعة الإسلاميّة، إسطانبول ١٩٩٧، ١٢٧ص-١٢٧.

٣٥ سبق تخريجه، صحيح البخاريّ، الرّقاق، ١٠؛ صحيح مسلم، الزّكاة، ١١٦، ١١٩؛ التِّرمذيّ، المناقب، ٣٢.

٣٦ سبق ذِكرُه. صحيح البخاريّ، الدّعوات، ٣٩، ٤٤-٤٦؛ صحيح مسلم، الذّكر، ٤٩؛ أبو داود، الوِتْر، ٣٢؛ ابن ماجه، الدُّعاء، ٣.

وأمامَ هذا الطُّموحِ يريدُ النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم من الإنسانِ أنْ يكونَ على عِلْمٍ بأنْ ليس له أموالٌ باستثناءِ الأمورِ الثّلاثةِ المذكورةِ في الحديثِ الشّريفِ الآتي، ويطلبُ منه أنْ يُطوِّرَ موقفاً تَبَعاً لذلك: عن أبي هريرة، أنَّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «يقولُ العبدُ: مالي ومالي، وإنّما له من ماله ثلاثٌ: ما أكل فأفنى، أو لبسَ فأبلى، أو أعطى فأقنى، ما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للنّاس»[٣٧].

خامساً: على الإنسانِ – لتسهيلِ أمورِه – متابعةُ نَفَقاتِه وَفْقاً لظروفِه بالتّرتيبِ التّالي:

أوّلاً: ينبغي توفيرُ الاحتياجاتِ الضّروريّةِ. وهي مصالحُ دينيّةٌ ودنيويّةٌ مرتبطةٌ بالحياةِ نفسِها لا غِنًى عنها (ضروريّات)، والتي تتضمّنُ حفظ مقصود من المقاصد الأساسية الخمسة للشريعة ذكرها علماء المسلمين على الترتيب: حفظ النّفس والعقل والدين والنسل والمال.

ثانياً: مصالحُ لا تَحْتَلُّ الحياةُ بفَقْدِها، وإنّما يترتّبُ على فَقْدِها وقوعُ النّاسِ في الضّيْقِ والمشقّةِ (حاجيّات).

ثالثاً: مصالحُ من بابِ التّرفيهِ – غيرُ إلزاميّةٍ مثل الأولى والثّانية – تَسْهُلُ بها الحياةُ، ولكنْ بدونِها لا تتوقّفُ (تحسينيّات)[٣٨].

رابعاً: ويتبيّنُ من الآياتِ[٣٩] التي تأمرُ بالتّواضعِ تجاهَ النّاسِ، وتَنْهى عن الغُرورِ والتّكبُّرِ؛ يتبيّنُ أنَّ النِّعَمَ التي أَنْعَمَ بها اللهُ، على سبيلِ المثالِ: عُلُوُّ المقامِ وكَثْرَةُ المالِ يَجِبُ ألّا تُغَيِّرَ سُلوكَ الشّخصِ، أي: ينبغي ألّا تُؤدّيَ إلى سلوكٍ ومواقفَ غيرِ أخلاقيّةٍ كالتّكبُّرِ والغَطْرَسَةِ واحتقارِ الآخرين؛ بل على العكسِ من ذلك ينبغي أنْ تكونَ النِّعمةُ باعثاً على الشُّكْرِ والتّواضُعِ. والنّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يُحذِّرُ من جَعْلِ النِّعَمِ وسيلةً للتّكبُّرِ ويعدُّها سبباً للخروجِ من رحمةِ الله[٤٠]. ويضربُ لنا مَثَلَ الشّخصِ الذي خَسَفَ اللهُ به الأرضَ لمشيِه بثوبيْه بتكبُّرٍ وتَعجْرُفٍ[٤١]. ويُحذِّرُنا القرآنُ الكريمُ بقولِه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[٤٢] مِن مَرَضِ التّكبُّرِ على الآخرين. ويُستعْمَلُ هذا التّعبيرُ للإبلِ التي أصابَها مرضٌ في عُنُقِها، تمشي ورقبتُها مُلْتَوِيَةٌ. فاستعارَ القرآنُ هذا الأسلوبَ كنايةً عن التّعالي والاستكبارِ على النّاسِ.

٣٧ صحيح مسلم، الزّهد، ٤،٣؛ التّرمذيّ، الزّهد، ٣١، التّفسير، ١/١٠٢؛ النّسائي، الوصاية، ١.

٣٨ انظر: رحمي ياران، «الاحتياج»، الموسوعة الإسلاميّة لوقف الدّيانة التّركيّ، إسطانبول ٢٠٠٠، ٢١ج، ص٥٧٣، ٥٧٤؛ جانكيز قلّك، «الإسراف»، الموسوعة الإسلاميّة لوقف الدّيانة التّركيّ، إسطانبول ٢٠٠١، ج٢٣، ص١٧٨–١٨٠.

٣٩ {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (سورة الإسراء، ٣٧/١٧)؛ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}. (سورة لقمان، ١٨/٣١–١٩).

٤٠ أخرجه البخاريّ عن ابن عمر، رضي الله عنهما: أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قالَ: «لا ينظرُ اللهُ إلى من جَرَّ ثوبَه خُيَلاءَ. صحيح البخاريّ، اللّباس، ١، ٢، ٥، فضائل الصّحابة، ٥؛ صحيح مسلم، اللّباس، ٤٢–٤٨؛ أبو داود، اللّباس، ٢٥–٢٧.

٤١ أخرجه مسلم عن أبي هريرة، عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «بينما رَجُلٌ يمشي قد أعجبَتْه جمته وبُرداه، إذ خسف به الأرض، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض حتّى تقومَ السّاعةُ». صحيح مسلم، اللّباس، ٤٩.

٤٢ سورة لقمان، ١٩/٣١.

ويُحذِّرُ القرآنُ من التَّفاخُرِ، ومن تجاهُلِ الإنذارِ، والإعراضِ عن الحقِّ بمثالِ قارون الذي ﴿كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى﴾[٤٣] وكانَ يملكُ من الكنوزِ حتَّى إنَّ العُصْبَةَ القويّةَ من الرِّجالِ كانَتْ تعجزُ عن حَمْلِ مفاتيحِها.

وكانَ قارونُ يتفاخَرُ بثروتِه، ويُحِبُّ الرِّياءَ، ويستمتعُ بالتَّجوُّلِ بينَ النَّاسِ باعتزازٍ، رغمَ تحذيراتِ قومِه له، كانَ يقولُ بتعجْرُفٍ: إنَّه حَصَّلَ ثروتَه بمعرفتِه ومهارتِه. وأخيراً أهلكَه اللهُ نتيجةَ أفعالِه.

إنَّ الذين تفاخَروا بثرَواتِهم، وشُهرتِهم، ومقاماتِهم إلخ. ونَسُوا أنَّ اللهَ يراقبُهم ولم يتصرَّفوا بمسؤوليّةٍ، سيندمون على ما يُشاهدونه في دارِ الآخرةِ. ولكنْ لن يكونَ هناك فرصةٌ ثانيةٌ تُتاحُ لهم[٤٤].

٤٣ سورة القصص، ٢٨/٧٦-٨٢.

٤٤ سورة الانشقاق، ٨٤/١٠- ١٥. حول هذا الموضوع انظر: صفوت كوسا، «استراتيجيّة احتياجات المجتمع الحديث – من الحاجة الحقيقيّة إلى الحاجة المصطنعة»، مجلّة الدّين والحياة، العدد ١٣، إسطانبول ٢٠١١، ص٧٤-٧٧.